انتشار المذهبين الصفري والإباضي

ببلاد المغرب الإسلامي (الدعوة، الثورة، الدولة)

أولا: أوضاع المغرب الإسلامي قبيل ظهور المذاهب الخارجية

ارتبط مسمى الحركات المذهبية في المغرب الإسلامي بحركتي الخوارج (الصفرية، الإباضية) والشيعة (العلوية، الإسماعيلية). وتعدّ حركات الخوارج من أولى الحركات المذهبية في هذه البلاد ظهورا، وقد ارتبط ظهورها وانتشارها في بلاد المغرب بعاملين أساسيين:

1- التطور السياسي الذي حدث للخوارج في المشرق الإسلامي في أواخر القرن الأول الهجري بعد فشل ثوراتهم واضطرارهم إلى اتباع أسلوب الدعوة والتنظيم السري، واختيار أطراف العالم الإسلامي ميدانا لنشاطهم بعد أن تعرضوا للمطاردة والاضطهاد.

2- ملاءمة الأحوال السياسية والاجتماعية في بلاد المغرب أواخر القرن الأول الهجري وأوائل الثاني لتقبل المذهب وانتشاره.

ولقد كان لسياسة ولاة بني أمية في المغرب الإسلامي دور كبير في إذكاء نار الفتنة، منذ فترة مبكرة جدا من عصر الولاة، وخاصة في أيام موسى بن نصير على وجه التحديد. وهي البدايات الأولى لسوء الظن بين البربر والعرب في بلاد المغرب، الأمر الذي سهل للخوارج بث دعوتهم فيه في فترات لاحقة، وهو ما عبر عنه حسين مؤنس حين انتقد سياسة موسى بن نصير ومن جاء بعده على ولاية بلاد المغرب؛ قائلا: "إن شيئا كثيرا من سوء الظن بالعرب، قد انغرس في قلوب البربر نتيجة لسياسة موسى بن نصير ومن بعده، حتى أصبح من العسير اقتلاعه. وأن سوء الظن هذا ظل يستشري مع الزمن، حتى فصل بين العرب والبربر جملة". ولم يستطع العرب التخلّص من هذا المشكل، ولم يستطيعوا السيطرة على المغرب، "إلا بعد أن ابتعدوا عن سياسة العنف، وعملوا على اكتساب قلوب البربر عن طريق نشر الإسلام بينهم، وإدخالهم في الجيوش العربية كجنود محاربين".

هذا وقد عانت بلاد المغرب كغيرها من الولايات الإسلامية، الفتن السياسية الناجمة عن الخصومات القبلية بين القيسية واليمنية، حتى اعتبرها بعض المؤرخين من الدوافع الأساسية لثورات البربر على ولاة بني أمية، فالثابت تاريخيا أن غالبية عرب الفتح كانوا من اليمنية الذين آزروا موسى بن نصير.

ولما عُزل هذا الأخير عام 96هـ، ولى مكانه الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك؛ **محمد بن يزيد القرشي**[1] من القيسية؛ حيث استقر محمد هذا بإفريقية "بأحسن سيرة وأعدلها". لكنه قام في المقابل من ذلك بتصفية آل موسى واليمنية بأوامر فوقية. فقد وصلته أوامر خاصة بتصفية عبد الله بن موسى بن نصير، وهو ما أشار إليه صاحب **البيان المغرب** في قوله: "ثم وصله الأمر بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه، واستئصال أموال بني موسى؛ فسجَنه وعذّبه، ثم قتله بعد ذلك". وكان الخليفة الأموي سليمان –على حدّ تعبير ابن عذاري والرقيق القيرواني– قد أمر بأخذ أهل موسى وولده، وكل من تلبس بهم، واستئصال أموالهم وتعذيبهم.

وخلال ولاية **يزيد بن أبي مسلم**[2]**(101–103هـ)** عاد نفوذ اليمنية من جديد، وكان ظلوما غشوما أساء السيرة في البربر، وضرب القيسية بيدٍ من حديد، حيث انتقم من سلفه محمد بن يزيد القرشي، برميه في غياهب السجن، وجلده، وتعذيبه، انتقاما لما حلّ باليمنية على يديه. ولم يتوقف به الأمر إلى التنكيل باليمينة فحسب، بل استبد بالبربر واشتط في معاملة البربر، حيث ينسب إليه أنه أهدر كبرياءهم؛ وأراد –كما جاء في خطبة له– أن يسم "اسم الرجل" منهم في يمناه، وكلمة "حرسي" في يسراه، ليعرفهم الناس. فلما سمع حرسه ذلك، اتفقوا عليه وغضبوا، وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى؛ وهو ما أدى إلى شعورهم بالإهانة، فتآمروا عليه وقتلوه. ومن سيئات هذا الوالي؛ أنه قضى على الإصلاحات التي أنجزها سلفه، حيث أعاد فرض الجزية على من أسلم من الموالي، ليتسنى له الحصول على مزيد من

1– **محمد بن يزيد**: القرشي بالولاء؛ أمير إفريقية. أرسله سليمان بن عبد الملك من الشام سنة 97هـ واليا عليها، وكانت الأندلس تابعة لها. وعزله الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد وفاة سليمان بن عبد الملك سنة 99هـ، فكانت ولايته سنتين وأشهرا. ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج1، حققه: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، تونس: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2013، ص: 75. عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها، تحرير وتقديم: حماه الله ولد السالم، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2014، ص: 199. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4، ص: 82. ابن خلدون، العبر، ج3، ص: 174. محمد بن رزق بن عبد الناصر بن طرهوني الكعبي، التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط1، 1426هـ، ص: 52.

2– **يزيد بن أبي مسلم**: مولى الْحجَّاج وَكَاتبه وَقيل كَانَ أَخَاهُ من الرضَاعَة. وقد ولاه يزِيد بن عبد الْملك إمارة إفريقية سنة 101هـ، فَقَدمهَا سنة اثْنَتَيْنِ بعْدهَا، وفيهَا توفي مقتولا على يَد حرسه. قال الوليد عنه: مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم كرجل ضاع منه درهم فوجد ديناراً. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص: 309. الزركلي، الأعلام، ج8، ص: 182.

الأموال. وبعد مقتل يزيد، آلت ولاية المغرب **لبشر بن صفوان**[1]؛ الذي كان من غلاة اليمنية، ولذلك فلا غرو أن يتكرر مسلسل معاناة القيسية على يديه. فقد أمعن بشر هذا كثيرا في التنكيل بالقيسية واضطهادهم؛ "فاستصفى بقايا آل موسى بن نصير".

وقد بقيت الأمور تسير في هذا الفلك، مرورا بولاية **عبيدة بن عبد الرحمن القيسي**[2]، الذي أَخذ عُمَّال بشر بن صَفْوَان وَأَصْحَابه عندما قدم القيروان، فحبسهم وأغرمهم وتحامل عَلَيْهِم، وصولا إلى عهد **عبيد الله بن الحبحاب**[3] الذي تقلّد الولاية سنة 116هـ، حيث تنفّس القيسية الصعداء في عهده، وانقلبت الدائرة على اليمنية، ولاقى أشياعهم على يديه عنتا شديد.

كما أن الأحوال ازدادت سوءا إبان ولايته، حيث أسرف في سياسته كثيرا، وجند الجيوش لسلب البربر وسبيهم في أقاصي المغرب. ولا نجد تعبيرا يناسب المقام هاهنا مما ذكره الرقيق القيرواني، حينما تحدث عن غزوات عامله حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع قائلا: "وأصاب من الذهب والسبي أمرا عظيما، ولم يدَع في المغرب قبيلة إلا أداخها، فمُلئوا منه رعبا وخوفا".

وإلى جانب انشغال الولاة بالخصومات القبلية، كانوا يتنافسون في جمع الأموال إرضاء للخلافة من جهة، وكسب الأنصار وإشباعا لنهمهم من جهة ثانية. لذلك عكفوا على إرسال الحملات والجيوش

1- **بِشْر بن صَفْوان (ت: 109هـ)**: الكلبي؛ أمير المغرب، ولي مصر أولا سنة 101هـ من قبل يزيد بن عبد الملك، ثم جاءه كتاب يزيد بتأميره على إفريقية سنة 102 هـ فخرج إليها، وأقام في القيروان، وغزا صقلّيّة وغيرها؛ ومات بالقيروان. ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، تحقيق بشار عواد، ص: 78. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 63. ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص: 201. الزركلي، الأعلام، ج2، ص: 54. محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج4، بيروت: المكتب الإسلامي، ط7، 2000، ص: 247.

2- **عبيدة بن عبد الرحمن بْنِ أَبِي الْأَغَرِّ السّلميّ**: ولى إفريقية لهشام بن عبد الملك. وهو ابن أخي أبي الأعور. روى عن روح بن زنباع الجذاميّ. روى عنه بكر بن سوادة. ينظر: ابن يونس، تاريخ ابن يونس، ج2، ص: 143. ابن خلدون، العبر، ج4، ص: 241. ابن الأثير، الكامل، ج4، ص: 187.

3- **عبيد الله بن الحبحاب**: السلولي، كان كاتبا لهشام بن عبد الملك ثم ولاه إمرة مصر، وإفريقية. وَكَانَ خَبِيرًا حَازِمًا وَشَاعِرًا كَاتِبًا، وَهُوَ الَّذِي بَنَى جَامِعَ تُونُسَ. ينظر: ابن يونس، تاريخ ابن يونس، ج2، ص: 140. ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، تحقيق بشار عواد، ص: 81. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج37، ص: 415. ابن الأثير، الكامل، ج4، ص: 210. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، 336. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج3، ص: 204. الزركلي، الأعلام، ج4 ص: 192.

لهذا الغرض. فقد غزا يزيد بن أبي مسلم صقلية سنة 101هـ في وقت كان المغرب فيه يمر بأوقات عصيبة جدا.

كما أنه في سنة 109هـ غزاها بشر بن صفوان "وأصاب منها سبيا كثيرا"، "بعد أن هلك من جيشه خلق كثير". وتوالت الغزوات الواحدة تتلوها الأخرى، وفي تلك الجيوش كان البربر يشكلون غالبية رجالها، فكانوا أداة فعالة لخدمة طموح الولاة.

وحاصله؛ أن عمال إفريقية استجابوا لمطامع رؤسائهم بالمشرق، حيث كانوا يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إليهم، فيرسلون لهم البربريات. فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب منّاهم بالكثير وتكلّف لهم أو كلّفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسّف وسوء السيرة. فظلم البربر المسلمين، وكلّفهم ما لا يطيقون، وتعدى على أموالهم، وأساء عماله السيرة.

ويجمع الكثير من المؤرخين على سوء معاملة ولاة بني أمية للبربر وإرهاقهم بالمغارم والجبايات، واعتبر بعضهم بلاد البربر دار حرب حتى بعد دخولهم أفواجا في الإسلام. باستثناء الفترة التي ولي فيها عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة، حيث أمر بإسقاط الجزية عنهم، واستعادة ثقتهم في الخلافة، وتجلى ذلك في تعيين الوالي التقي إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر؛ إلا أن هذه السياسة انتهت بوفاة عمر رحمه الله، وعادت الأمور إلى سابق عهدها.

وهكذا تسبب ولاة بني أمية في إثارة مشاعر الكره والحقد عند البربر على الولاة والخلفاء على حد سواء، مما أوجد مناخا ملائما لانتشار مذهب الخوارج. ولاشك أنهم كانوا يمثلون مشيئة الخلافة وينفذون أوامرها وسياستها، وأن الخلفاء درجوا على اختيار عمال يأتمرون بأمرهم. ثم إن الظلم الذي لحق بالبربر على يدي يزيد بن أبي مسلم إنما تم تحت سمع الخلافة وبصرها. فالخليفة يزيد بن عبد الملك عرف بالطمع والجشع وحب المال، وقد ذهب البربر ضحية لهذه الطباع. وقد أوردت بعض المصادر نصوصا تؤكد ذلك حيث جاء في بعضها قوله: "ما مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده، إلا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا".

وبعد مقتل يزيد رماهم ببشر بن صفوان الذي أساء السيرة فيهم. وتفيد بعض الروايات التاريخية أن الخليفة هشام رفض السماح بمقابلة وفد من البربر جاء يشكوا إليه جور ابن الحبحاب وتعسفه، وعاد الوفد بعد أن تيقن رجاله من تواطؤ الخليفة مع عماله.

إن الظلم الاجتماعي الذي استشرى كثيرا في بلاد المغرب الإسلامي كان من صنع الخلافة وولاتها، وهو أمر حفز البربر كثيرا لاعتناق مبادئ الخوارج، حيث أقبلوا عليها إقبالا كبيرا بعد أن وجدوا فيها ضالتهم المنشودة، والتقوا مع الخوارج في موقفهم من عدو مشترك والمتمثل في ولاة بني أموية؛ وهو ما سيأتي بيانه في المبحث التالي.

ثانيا: نشاط حركات الخوارج ونتائجها:

لم تتفق الدراسات الحديثة على وضع تاريخ محدد ودقيق لظهور دعاة الخوارج في بلاد المغرب، لأن المصادر الأصلية لم تَفْصِل في ذلك. فهذا ابن حوقل يرجع المسألة إلى معركة النهروان سنة 38هـ، وذلك في معرض حديثه عن جبل نفوسة؛ فيقول: "والجبل بأجمعه دار هجرتهم على قديم الأيّام لهم وبه معشر الإباضيّة والوهبيّة ثووا بعد عبد الله بن إباض وعبد الله بن وهب الراسبيّ لأنّهما قدماه وماتا به، ولم يدخل أهل هذا الجبل في عهد الإسلام إلى سلطان، ولا سكنه غير الخوارج مذ أوّل الإسلام، بل مذ عهد علي عليه السلام وقت انصرافهم عنه بمن سلم معهم من أهل نهروان".

وقد تراودنا شكوك كبيرة في مدى صحة رواية ابن حوقل السالفة الذكر، بل قد نقطع بيقينية بطلانها. سندنا في ذلك أن الراسبي قتل في معركة النهروان. كما أن عبد الله بن إباض لم يرد له ذكر ضمن الناجين من القتل في هذه المعركة. وهو ما جعل بعض الباحثين يذهب إلى القول بأن الظهور الحقيقي لمذهب الخوارج في بلاد المغرب يعود إلى نهاية القرن الأول، وبداية الثاني الهجري.

وقد قدموا مع طلائع الحملات الفاتحة وظلوا يعملون في السرّ خوفا من بطش الولاة، إلا أنهم استطاعوا إقناع أهل المغرب للخروج على ولاة بني أمية. وهو ما أكده ابن خلدون في قوله: "فاستقروا هنالك من لدن الفتح، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة. ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها، من الإباضية والصفرية". وهو ما ذهب إليه محمد عبد الله

عنان من المحدثين في قوله: "وكانت إفريقية وهي أقرب قطر إسلامي لإسبانيا، وتتبعها حكومة الأندلس من الوجهة الإدارية، تفيض أيضاً بعناصر اضطراب خطرة. فقد نزح إليها الدعاة الخوارج منذ أواخر القرن الأول، وذاعت مبادئ الخوارج الثورية بين البربر بسرعة لحداثة عهدهم بالإسلام، وتعددت نحلهم وطوائفهم".

وكيفما كانت الأحوال فقد ظل أهل المغرب مدة طويلة ينتظرون الإصلاح والتغيير ويرجونه رغم تحريض دعاة الخوارج لهم، حيث أرسلوا في هذا الإطار وفدا عنهم –كما سيأتي الحديث عنه– إلى الخليفة هشام بن عبد الملك للنظر في ظلم الولاة، إلا أن هذه الوفادة لم توفّق. ومع مرور الأيام، واستشراء الظلم الكبير من طرف ولاة بني أمية، كانت الأرضية قد أصبحت جاهزة لتقبّل المذهب الخارجي، الذي تمثل أساسا في الصفرية والإباضية، وهو ما أكّده حسين مؤنس بقوله: "ويجمع مؤرخو المغرب على أن معظم من أقبل إلى إفريقية من هؤلاء الدعاة، كانوا من الصفرية والإباضية". **والسؤال المطروح**: ما تاريخ ظهور الفرقتين في بلاد المغرب؟ وفيما تمثل نشاطهما الدعائي والمسلح ضد ولاة بني أمية بالمغرب؟

أولا: الصفرية

ينتسب الصفرية إلى عبد الله بن الصفار. ومنهم من ينسبهم إلى شخص يدعى زياد بن الأصفر. كما الكثير من الروايات ذهبت في نسبتهم مذاهب كثيرة، إلا أن الراجح أنهم ظهروا حينما خالف عبد الله بن الصفار نافع بن الأزرق حول مسألة القَعَدة سنة 64هـ، وهو خلاف فقهي بحت، اتخذوا فيه موقفا وسطا بين الأزارقة المتطرفين، والإباضية المعتدلين. يقول الشهرستاني متحدثا في هذا الصدد عن مخالفة الصفرية للفرق الأخرى: "خالفوا الأزارقة، والنجدات، والإباضية في أمور منها: أنهم لم يكفروا القعدة عن القتال، إذا كانوا موافقين في الدين والاعتقاد".

والواقع أن عقائد الصفرية تمثل تطورا عمليا ملحوظا في فكر الخوارج وعقائدهم، إذ تجنح إلى التخفيف من الغلو والتطرف الذي أفضى بحركاتهم إلى الفشل من قبل. كما نادوا بجواز مبدأ التقية الذي أتاح لهم القدرة على الدعوة السرية المنظمة، وحقق لمذهبهم الانتشار. يقول الشهرستاني ملخصا لمبادئهم: "ولم يسقطوا الرجم، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النار. وقالوا: التقية جائزة في القول دون العمل. وقالوا: ما كان من الأعمال عليه حد وقاع فلا يتعدى بأهله الاسم الذي

لزمه به الحد كالزنا، والسرقة، والقذف، فيسمى زانيا، سارقا، قاذفا، لا كافرا مشركا. وما كان من الكبائر مما ليس فيه حد لعظم قدره مثل ترك الصلاة، والفرار من الزحف، فإنه يكفر بذلك".

وتذكر المصادر الإباضية أن أول داع للصفرية ببلاد المغرب هو عكرمة مولى ابن عباس. وقد صرّح بذلك الدرجيني في **طبقاته** قائلا: "حدّثنا غير واحد من أصحابنا عن الإمام أفلح، عن ابنه عبد الوهاب، عن جدّه عبد الرحمن بن رستم أنه قال: أول من جاء بطلب مذهب الإباضية ونحن بقيروان إفريقية سلامة بن سعيد. قال: وقدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن العباس متعقبين على بعير. فسلامة يدعو إلى مذهب الإباضية، وعكرمة يدعو إلى مذهب الصفرية"[1]. معنى هذا أن القيروان كانت مركز الدعوة في المغرب، لكننا لا نعرف على وجه الدقة متى حضر عكرمة –رأس دعاة الصفرية– إلى إفريقية، والراجح أنه وصلها خلال السنوات الخمس الأولى من القرن الثاني للهجرة.

وقد نزل عكرمة بالقيروان، حيث أمكنه من الاتصال برؤساء القبائل أمثال ميسرة المطغري (نسبة لقبيلة مطغرة[2]) الذي تلقى العلم على يديه متخفيا؛ فقد اشتغل بالسقاية في سوق القيروان حتى لا يُكشف أمره، وقد تسنى له من ذلك أخذ تعاليم الصفرية عن عكرمة ثم عاد ينشرها بين قومه من بربر مطغرة.

وإلى جانب ميسرة برزت شخصية أخرى –لها وزن أكبر في الدعوة الصفرية–وهو أبو القاسم سمكو بن واسول[3] شيخ مكناسة[1]، الذي التقى بعكرمة في القيروان ولازمه حتى موته سنة 105 أو 107هـ، وكان من مشاهير حملة الدعوة و بأنه مقدم الصفرية بعد وفاة عكرمة.

1- الدرجيني أبو العباس أحمد، طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، حققه: إبراهيم طلاّي، قسنطينة: مطبعة البعث، ص: 11.

2- **مطغرة**: بطن ينتمي إلى قبيلة ضريسة، وينتشر بتلمسان وفاس والصحراء بين تافيلالت وتوات. وتكتب مضغرة، ومدّغرة. ينظر: بن عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة الصحراء، المحمدية: مطبعة فضالة، 1976، ص: 197.

3- **سمكو بن واسول**: بن مصلان بن أبي نزول من قبيلة مكناسة. كان أبوه سمقو من حملة العلم، ارتحل إلى المدينة فأدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس. وكانت له ماشية كثيرة، وكثيرا ما كان يأتي ببعضها إلى سوق كانت تقام في البقعة التي بنيت عليها مدينة سجلماسة بعد ذلك. وكثر تردد البربر من مكناسة إلى تلك السوق، وكان مذهب الصفرية قد بدأ ينتشر في قبائل مكناسة، فاتفق جماعة من معتنقيه، ومعهم أبو القاسم على تأمير فقيه منهم اسمه عيسى بن يزيد الأسود فأمّروه. وهو الّذي بايع لعيسى بن يزيد وحمل قومه على طاعته فبايعوه من بعده. ينظر: ابن خلدون، العبر، ج6، ص: 172.

واستطاع أبو القاسم بعد نشر المذهب بين أهله بمكناسة، أن ينتقل إلى جنوب الصحراء، وبالضبط إلى واحة تافيلالت[2]، وتظاهر بتربية الماشية. وعكف على بث تعاليم المذهب بين الدعاة حتى تحولت خيمته إلى مجمّع للخوارج الصفرية.

ولم يقدّر لمذهب الخوارج الصفرية الانتشار بين بربر مطغرة ومكناسة فحسب، بل تعدّاه إلى برغواطة[3] الذين اعتنقوه في وقت مبكر على يدي طريف بن شمعون الذي لقي عكرمة بالقيروان. وتجدر الإشارة إلى أن طريفًا هذا كان على صلة وثيقة بميسرة المطّغري زعيم ثورة الأشراف. كما انتشر المذهب الصفري بين قبائل زناتة، وجماعات الأفارقة، بقيادة زعيمهم عبد الأعلى بن جريج[4] عن عكرمة. كما استطاع أبو القاسم سمكو إيصال مبادئ الصفرية، إلى جماعات السودان القاطنين جنوبي الصحراء، حيث وجد فيهم أتباعا مخلصين، ولا أدلّ على ذلك أن أول رئيس للصفرية بسجلماسة 140هـ كان من السودان وهو عيسى بن الأسود.

وهكذا فقد قُدّر للمذهب الصفري أن ينتشر في سائر أرجاء المغرب الأقصى على حد سواء، ولعل هذا الانتشار السريع جعل ابن خلدون يقرر بأن الصفرية قد انتشرت في سائر الأعضاء بإفريقية، يستشف ذلك من قوله: "...إلّا ما كان من خوارج البربر بإفريقية، فإنّ دعوة الخارجية فشت فيهم من لدن مسيرة الظّفريّ سنة ثلاث وعشرين ومائة".

1- **مكناسة**: مدينة كبيرة أسستها قبيلة مكناسة وهي فرع من قبيلة زناتة فسميت باسمها وتبعد عن فاس بنحو ستة وثلاثين ميلا. ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983، ص: 214. عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، الرباط: المطبعة الملكية، 1968، ص: 119.

2- **تافيلالت**: منطقة تقع في الصحراء المغربية جنوبي جبال الأطلس العليا، ويتخللها عدة واحات. وهي أحد أبواب الصحراء، ومراكز التبادل الحضاري بين شمال المغرب وجنوبه. ينظر: بن عبد الله، معلمة الصحراء، ص: 62.

3- **برغواطة**: شعب من شعوب المصامدة، بريف البحر الغربي وهو المحيط. ينظر: ابن خلدون، العبر، ج6، ص ص: 280-281. ابن منصور، قبائل المغرب، ص: 322.

4- **عبد الْأَعْلَى بن جريج**: الإفْرِيقِي رومي الأَصْل وَمولى للْعَرَب كَانَ إِمَام الصفرية فِي انتحال مَذْهَبهم فَقَامَ بأمرهم مُدَّة ثمَّ تقدم إِلَى السوس فَقتله عاملها إِسْمَاعِيل بن عبيد الله. ينظر: الناصري، الاستقصا، ج1، ص: 164.

ثورات الخوارج الصفرية:

أورد الطبري وغيره الطريقة التي رفض بها الخليفة هشام بن عبد الملك استقبال الوفد البربري، الذي قدم إليه للشكوى مما لحق بأهل المغرب من الظلم والشطط، والتنكيل.

فقد خرج ميسرة المطغري في بضعة عشر إنسانا لمقابلة الخليفة هشام، لكن الأمر صعب عليهم، فأتوا الأبرش، فقالوا: "أبلغ أمير المؤمنين بأن أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا أصاب نفّلهم دوننا وقال: هم أحق به، فقلنا: هو أخلص لجهادنا، وإذا حاصرنا مدينة قال: تقدّموا وأخّر جنده، فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد للجهاد ومثلكم كفى إخوانه فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم، ثم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا ينقرون عن السخال ويطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلده، فقلنا: ما أيسر ها لأمير المؤمنين، فاحتملنا ذلك وخلّيناهم وذلك، ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة فنحن مسلمون فأحببنا أن نعلم أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟"[1].

كانت هذه رسالة الوفد المغربي بقيادة ميسرة المطغري الذي توجه لمقابلة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بدمشق، تركوها بعد أن منعهم حاجبه الأبرش من مقابلته. رسالة فيها وعد ووعيد، وإنذار بانطلاق أولى الشرارات المناوئة للسلطة الأموية ببلاد المغرب الإسلامي.

نعم، جاءت هذه الرسالة في وقت تهيأت فيه كل الظروف وتوفر المناخ الملائم لاندلاع الثورات المسلحة، بعد أن تأججت عواطف أهل المغرب وحنقوا على عمال بني أمية؛ ضف إلى ذلك ما ذكرته بعض النصوص التاريخية[2] التي تبين المذلّة والاحتقار الذي لحق بالبربر على عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وواليه يزيد بن أبي مسلم-كما تقدم ذكره- ناهيك عن عملية تخميس البربر، وإحصاء أموالهم وأولادهم. ولا شك أن سياسة الخلافة الأموية والعديد من ولاتها ببلاد المغرب، أدّت إلى استياء فئات عريضة من البربر، خاصة تلك التي عانت الويلات في الميدان الضرائبي، وهي سياسة أضرت بالبربر إلى حدّ كبير.

1- الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص ص: 254-255.

2- راجع مثلا: ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، تحقيق بشار عواد، ص: 75. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 62.

ونظرا للظروف المواتية بالمغرب الأقصى لاندلاع الثورات، وتفشي الصفرية القوي بين أهله، كان الصفرية هم السبّاقون إلى العمل المسلح. حيث لاقى دعاة الصفرية في البداية نجاحا أكبر، خاصة لما نادوا بالثورة السريعة دون اللجوء إلى التروي مثلما فعل الإباضية. كما أن مواتاة ظروف الصفرية بالمغرب الأقصى، لغلبة المذهب الصفري وسيادته بين قبائله، جعلت الخوارج الصفرية هم السباقين إلى إعلان الثورة. وفيما يلي أهم ثورات الخوارج الصفرية:

1- **ثورة الأشراف 122هـ:** بعد عودته من دار الخلافة بالشام؛ بويع ميسرة المطغري بالإمامة على الصفرية، وزحف بأتباعه الصفرية إلى طنجة، "فقتلوا أهلها، يقال: إنهم قتلوا الصبيان". كما قتلوا واليها عمر بن عبيد الله المرادي، وعين عليها عبد الأعلى بن جريج واليا.

كما اتجه بعد هذا التاريخ إلى إقليم السوس فخضعت له، فتغلب عليه بعد أن قضى على إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب، فكان ذلك خطوة مهمة في السيطرة على المغرب الأقصى، ساعده في الأمر كله انضواء القبائل الموالية له تحت رايته وتحمّلها أعباء وتكاليف الحملات العسكرية.

وبعد هذا التاريخ؛ توجه ميسرة صوب القيروان لكن ابن الحبحاب بعث إليه بما لديه من جند بإمرة خالد بن حبيب الفهري، ليحول دون وصوله إلى القيروان، واستدعى جيش حبيب بن أبي عبيدة الذي كان قد أنفذه إلى صقلية. والتقى الجمعان على مقربة من طنجة واقتتل الجيشان (جيش خالد وجيش ميسرة) قتالا شرسا انهزم على إثره ميسرة وانصرف إلى طنجة، ولعل هذا الأمر كان داعيا إلى تنحيته واختيار خالد بن حميد الزناتي لإمامة الصفرية.

وقد عمل خالد بن حميد كل ما في الوسع من أجل الظفر بالمعركة فعمد إلى المكر والخديعة، فقسم جيشه إلى قسمين؛ قسم واجه جيش خالد بن حبيب الفهري، وقام الجيش الثاني بحركة التفاف من الخلف وذلك لمنع اتصال جيش خالد الفهري وحبيب بن أبي عبيدة المرابط عند مجاز نهر وادي شلف، وكذلك منعا لهروب جيش خالد الفهري فكانت مصيدة حقيقية وقع فيها جيشا الرجلين، وكانت النتيجة قاسية بعد أن قضي عليه قضاء مبرما، وقتل الجيش برمته عبيدا وأشرافا، "فقتل في تلك الوقعة حماة العرب، وفرسانها، وكُماتها وأبطالها، فسميت الغزوة؛ غزوة الأشراف".

2- **ثورة بقدورة 123هـ:** لما وصلت أنباء هزيمة الأشراف إلى الخليفة هشام بن عبد الملك غضب كثيرا. حيث أورد الرقيق القيرواني قولة هشام الشهيرة، إثر هذا الانهزام؛ إذ يقول: "والله لأغضبنّ لهم غضبة عربية، ولأبعثنّ إليهم جيشا أوله عندهم، وآخره عندي. ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت جانبه خيمة قيسي أو تميمي". وفعلا؛ بعث هشام جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عياض القشيري قوامه ثلاثون ألفا إلى المغرب وولاّه إفريقية وأمدّه بالأدلاّء والمرشدين، "وأباح له الإباحات، ووضع له الأطوياء".

وعلى الرغم من إرساله لهذه العدة والعتاد، فإن عوامل الفشل قد تضافرت لتعصف ببني أمية هذه المرة كذلك. ذلك أن النعرات القبلية بين القيسية واليمنية، قد طفت إلى السطح من جديد، وظهرت جليا بعد توجه الجيش إلى مكان يدعى بقدورة لمقابلة الصفرية. حينما نشأ خلاف بين كلثوم وحبيب بن أبي عبدة عند رفضِ الأول مشاورة الثاني حول أسلوب القتال. ورغم المحاولات الكثيرة التي بذلها كلثوم فيما بعد لإقناع حبيب بن أبي عبيدة بالقيادة، فإن الوقت كان قد فات، والهزيمة أصبحت وشيكة، وانتهت المعركة بفوز مؤزر للصفرية وانهزام أليم للعرب، حيث قتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة، وكانت هذه المعركة مؤشرا مهما لسيطرة الصفرية على المغرب الأقصى.

3- معركة القرن والأصنام: ورغم ما تم للصفرية بعد بقدورة من السيطرة على المغرب الأقصى وامتداد نشاطهم إلى المغربين الأوسط والأدنى فإن الحظ لم يحالفهم بعدها.

وقد كانت آمال الصفرية في زيادة حركاتها التوسعية إلى القيروان مقر ولاية إفريقية، حيث تزعم كل من عكاشة بن أيوب النفزاوي وعبد الواحد بن يزيد الهواري الحركة هذه المرة، فقاما بالاستيلاء على مدينة قابس بعد ضربها بالمجانيق، كما تمّ الاتفاق على محاصرة القيروان، لكن مساعي الصفرية خابت وخسرت لما مني عكاشة بهزيمة فادحة على يد أمير صلاتها عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وقُتل كثير من رجاله، وتفرق من بقي منهم، فهرب بنفسه إلى الصحراء سنة 124هـ.

وفي هذه الأثناء وصل المدد لعمال بني أمية من طرف الخليفة هشام الذي أشرف بنفسه على الخطط العسكرية، خاصة بعد إدراكه العميق بالحالة الحرجة التي آلت إليها الخلافة في المغرب. ولهذا الغرض أرسل حنظلة بن صفوان على رأس ثلاثين ألف جندي سنة 124هـ، حيث حاول حنظلة هذا

الإيقاع بعكاشة وصدّه عن مشروعه الرامي إلى لمّ شمل الصفرية من جديد، ولجأ إلى تأليب الصفرية ضدّه وباغته في إقليم الزاب وهزمه.

وبعد هذه الهزيمة توجه عكاشة إلى مكان يبعد عن مجانة بستة أميال يدعى القرن، ونجح أتباعه من صفرية تلمسان في إعادة تنظيم الصف الداخلي بقيادة أبي قرّة الذي زحف بجيش قوامه ثلاثون ألفا لمحاصرة القيروان وعسكر في منطقة الأصنام، وبذلك أصبح قاب قوسين أو أدنى من القيروان.

وفي ظل هذه الظروف حاول حنظلة أن يحول دون سقوط القيروان، فلجأ إلى حفر خندق حول المدينة، وعمل على إحباط حلم عكاشة في ذلك لكن هذا الأخير لم يستجب، فبادر حنظلة دون استشارة الخليفة إلى خوض غمار الحرب ضد الصفرية وقتل منهم خلقا كثيرا سنة 125هـ وأسر عكاشة وقتله، واستطاع كذلك أن يفتك بعبد الواحد وينكل بجيشه، وكان مجموع من قتل في المعركة مائة وثمانون ألف.

إن الفوز المؤزر الذي حققه حنظلة على الصفرية، كان بحقّ نصرا كبيرا للخلافة الأموية، وردا لاعتبارها بعد الهزيمتين المتتاليتين في الأشراف وبقدورة. ولا أدلّ على ذلك مما ذكره ابن عذاري والرقيق، روايةً ابن الليث ابن سعد حين قال: "ما غزوة كنتُ أحب أن أشهدها، بعد غزوة بدر، أحَبُّ إليّ من غزوة القرن والأصنام".

قيام دولة بني المدرار:

لم تدم نشوة الانتصار الأموي ونفوذهم ببلاد المغرب كثيرا. فقد توفي الخليفة هشام بن عبد الملك سنة 125هـ، وضعف أمر الخلافة في ولاية إفريقية، وضعفت هيبتها. وقد تمثلت صورة هذا الضعف في تغلب عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة على إفريقية سنة 127هـ، وإرغام حنظلة بن صفوان على مغادرتها.

وقد استطاع عبد الرحمن بن حبيب عن طريق الحيلة أحيانا، والعنف أحيانا أخرى، أن يقمع حركات الصفرية التي قامت في عهده مثل ثورة عروة بن الوليد الصدفي بتونس. ورغم ذلك؛ فإنّ أمر الصفرية لم ينقطع من المغرب على ما ذكره ابن خلدون، بل ازدادت ثوراتهم شدة بعد وفاة عبد الرحمن بن

حبيب، وبقيت الأمور تسير في مدّ وجزر إلى أن استطاع أبو القاسم سمكو بن واسول إرساء دعائم دولة بني مدرار في سجلماسة سنة 140هـ.

ثانيا: الإباضية

ينتسب المذهب الإباضي إلى عبد الله بن إباض المري التميمي؛ وإن كان بعض مؤرخي الإباضية ينكرون ذلك، حيث إنهم يعتبرون جابر بن زيد الأزدي[1] أسّ المذهب وإمامه. وهو ما صرّح به الدرجيني قائلا: "أصل المذهب وأسّه الذي قام عليه نظامه". حيث إن عبد الله بن إباض كان في الحقيقة لا يصدر في أمره إلا عن جابر بن زيد التابعي، كما أشار إلى ذلك الشماخي في **سيره** في ترجمة عبد الله بن إباض: "وفي حفظي أن يُصدر في أمره عن جابر بن زيد".

ويجمع المؤرخون على أن المذهب الإباضي ظهر شأنه في ذلك شأن الصفرية سنة 64هـ عندما خالف عبد الله بن إباض نافع بن الأزرق في تكفيره القعدة عن القتال، واتخذ بذلك موقفا معتدلا.

والحق يقال: إن الاعتدال هو السمة البارزة على مذهب الخوارج الإباضية، إذ أنهم يحرمون دماء المسلمين وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم، كما اعتبروا دور مخالفيهم دور توحيد –إلا معسكر السلطان فقد اعتبروه دار بغي– وأجازوا مناكحتهم وموارثتهم. وقد أكّد ذلك ثلّة من الأعلام، منهم: الشهرستاني في **الملل والنحل**، والبغدادي في **الفرق بين الفِرق**، والإسفراييني في **التبصير بالدين**.

الإمامة عند الإباضية: تعتبر الإمامة عند الإباضية جزءا مهما من العقيدة، وتعرف عندهم بمسالك الدين، وهي أربعة:

1- **جابر بن زيد(21–93هـ)**: الأزدي البصري، أبو الشعثاء: تابعي فقيه، من أهل البصرة؛ وأصله من عُمان. ينسب إليه بعض الإباضية مذهبهم. صحب ابن عباس، وكان من بحور العلم، نفاه الحجاج إلى عمان. وقد قال عنه أحمد في كتاب الزهد: لما مات جابر بن زيد قال قتادة: اليوم مات أعلم أهل العراق. ينظر: الدرجيني، طبقات المشائخ، ج2، ص ص: 205-214. الزركلي، الأعلام، ج2، ص: 104. محمد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضية، ص: 105. محمد صالح ناصر، مكانة الإباضية في الحضارة الإسلامية، الجزائر: دار ناصر للنشر والتوزيع، ط4، 2016، ص: 255.

1- **إمامة الظهور**: وهي الأصل والواجب. تصبح واجبة عندما تتوفر شروطها لتأسيس دولة إباضية المذهب. وشروطها أن يكون المسلمون من الإباضية أقوى من غيرهم، بحيث يستطيعون انتخاب من يحكمهم علنا طبقا لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وأحسن من مثّل هذه الإمامة هم الرستميون، وأحسن أئمة الظهور عبد الرحمن بن رستم[1].

2- **إمامة الدفاع**: وهي مرحلة بين الظهور والكتمان. فإذا كان الإباضية في طور الكتمان وداهمهم العدو فيجب عليهم أن يعلنوا حالة الدفاع عن أنفسهم، ويعقدوا إمامتها لمن يُعرف بالشجاعة والخبرة العسكرية، ويطلق عليه اسم إمام الدفاع، وله كل صلاحيات إمام الظهور حتى يزول الخطر، وبزوال الخطر تزول إمامته؛ وأحسن من مثلها بالمغرب أبو حاتم الملزوزي[2].

3- **إمامة الشراء**: وهي أن يخرج إمام بأربعين رجلا فما فوق، يبايعونه على الجهاد في سبيل الله. ويسمَّون شُرَاةً لأنهم اشتروا الجنة بأرواحهم؛ والكلمة مستوحاة من قوله تعالى: **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)**[3]، وقوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)**[4]. ولا يجوز لهم أن يعودوا لمنازلهم ما داموا قد خرجوا للجهاد، حتى ينقص عددهم عن ثلاثة رجال، كما لا يجوز لهم استعمال التقية، ما داموا خرجوا في سبيل الله. وأشهر من مثل هذه الإمامة مرداس وعروة بن حديد ابنا أدية[5]، اللذين ثارا ضد بني أمية بالمشرق.

1- **عبد الرحمن بن رُسْتُم (ت: 171هـ)**: بن بهرام؛ مؤسس الدولة الرستمية. كان من فقهاء الإباضية بإفريقية، معروفا بالزهد والتواضع. وهو فارسي الأصل، كان جده بهرام من موالي عثمان بن عفان رضي الله عنه. ينظر: ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 26، هامش: 04. الزركلي، الأعلام، ج3، ص: 306.

2- **أبو حاتم الملزوزي**: هو أبو حاتم يعقوب بن حبيب التجيبي الملزوزي الهواري الكندي. بايعه الإباضية بالإمامة بعد استشهاد إمامهم أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري. ينظر: الدرجيني، طبقات المشائخ، ج1، ص: 36.

3- البقرة، الآية: 207.

4- التوبة، الآية: 111.

5- **أبو بلال مرداس وعروة ابنا أدية**: الشاريان (من الشراة). حلاهما الدرجيني في طبقاته بقوله: "بلغا في الورع والديانة، والعلم والصيانة، الأمد الأقصى". ينظر: الدرجيني، طبقات المشائخ، ج2، ص ص: 214-226. محمد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضية، ص: 89.

4- **إمامة الكتمان**: وتعبر عن مرحلة الضعف. وفي هذه المرحلة يركنون إلى السرية واستعمال التقية، وينتخبون إماما عليهم، يكون عادة أعلمهم. وأشهر أئمة الكتمان: جابر بن زيد الأزدي، وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة[1].

الإباضية بالمغرب:

لما توفي جابر سنة 96هـ خلفه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة؛ الذي قيل: إنه ظل يتلقى العلم أربعين عاما، وبعدها نصب نفسه للتعليم. وفي عهده علا شأن الدعوة الإباضية واشتدّ ساعدها، والتي كان من أولى الأولويات عندها نشر الإباضية في بقاع كثيرة، فكانت بلاد المغرب واحدة منها، حيث ظفرت باهتمام كبير من طرفه، وأضحت ميدانا خصبا له، حيث بعث إليها داعيته سلمة بن سعيد.

وتؤكد المصادر الإباضية بأن أول من قدم من الدعاة إلى القيروان سلمة بن سعيد، قادما من البصرة مركز الدعوة في المشرق. ولا تسعفنا هاته المصادر بذكر تاريخ وصول سلمة هذا إلى إفريقية، ولا المدة التي قضاها بها، وكذلك تفاصيل أخرى كثيرة تبقى مجهولة.

وتشير الروايات التاريخية خاصة الإباضية منها؛ أن سلمة ذهب إلى إفريقية مصحوبا بالداعية الصفري عكرمة مولى ابن عباس. وقد توفي عكرمة في الفترة (100-110هـ)، والراجح أنها سنة 105هـ، وذلك بعد دخوله المغرب قبل سنة 104هـ على ما ذكره البكري.

وبناء على ما سبق؛ فمن المحتمل جدا أن يكون سلمة قد وصل إلى إفريقية في السنوات الأخيرة من القرن الأول الهجري، أو السنوات الأولى من القرن الثاني الهجري. ومن الآكد أنه وصلها قبل سنة 110هـ، وهو آخر تاريخ تعطيه المصادر لوفاة عكرمة. وتجمع المصادر الإباضية على حماس سلمة الشديد في نشر المذهب، "وهو الذي وصل إلى المغرب يدعو الناس إلى هذا المذهب، وهو يتمنى ظهوره يوما واحدا ويموت في آخره".

1- **مسلم بن أبي كريمة**: التميمي بالولاء، البصري، أبو عبيدة: فقيه، من علماء الإباضية. أخذ المذهب عن جابر بن زيد، ثم صار مرجعا فيه تشد إليه الرحال. وكان أعور. ويقال له: القفاف. ينظر: الشماخي، السير، ص: 87. محمد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضية، ص: 127. الزركلي، الأعلام، ج7، ص: 222. محمد صالح ناصر، مكانة الإباضية في الحضارة الإسلامية، ص: 255.

وقد اتخذ سلمة هذا من المغرب الأدنى مكانا لنشاطه واستطاع أن يكسب أتباعا له في إقليم طرابلس وجبل نفوسة، ولم يمتد به الأجل طويلا، حتى خلفه أبا عبيدة محمد بن عبد الحميد بن المغيطر الذي تتلمذ على يدي أبي عبيدة بالبصرة.

وقد انتشر المذهب على يديه بين بربر جبل نفوسة الذي أصبح دار هجرة للمذهب الإباضي في بلاد المغرب، وكان رسوخ قدم المذهب في هذا الجبل سببا في انتشاره بين القبائل الأخرى (هوارة– لماية– زناتة– سدراتة– زواغة– لواتة)، أما مطماطة فلم تعتنقه إلا زمن عبد الوهاب بن عبد الوهاب بن رستم.

ثورات الإباضية قبل حركة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري 140هـ:

انتشر المذهب الإباضي بالمغرب الأدنى خاصة بين قبائل هوارة ونفوسة. ورغم ذلك؛ فإن الإباضية لم يكونوا قد تهيأوا بعد لإعلان إمامة الظهور، ولو حتى بعد ثورة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري سنة 140هـ.

ويعزى هذا التأخر في إعلان الظهور إلى عاملين أساسيين: الأول؛ قرب مواطنهم من القيروان مركز ولاية إفريقية ومقر الجند. والثاني؛ قربها النسبي من عاصمة الخلافة الأموية وولاتها بمصر، وهو ما سهّل من مأمورية الخلافة في القضاء على كل تمرد فيها.

ولقد كان لثورات الخوارج الصفرية السالفة الذكر بين سنتي (122–125هـ) بالغ الأثر في تاريخ الإباضية. حيث شكلت منعطفا حاسما في تاريخهم بشمال إفريقيا، حيث إنهم بدأوا يتوجسون خيفة من انتشار المذهب الصفري على حساب الإباضية، وبالتالي ضياع حلم الدولة الإباضية بالمغرب.

ونظرا لهذا المعطى التاريخ الهام؛ فقد بدأوا يكثفون دعوتهم بزيادة عدد الدعاة من برقة شرقا إلى السوس الأقصى غربا. كما أخذوا ينظمون أنفسهم إداريا، وذلك بتأمير شخص عليهم، شريطة أن يكون عارفا بالمذهب، مخلصا في نشره. وفي الغالب كان هذا الشخص يتلقب بالإمام أو الخليفة أو الرئيس؛ ولعل أول إباضي تبوّأ هذه المرتبة هو عبد الله بن مسعود التجيبي، الذي يعتبر أو رجل ذكرته المصادر في هذا الصدد.

إن المتتبع لأحداث هذه الفترة، يدرك جليا أن نجاح الحركة الصفرية بالمغرب الأقصى، قد استهوى نظيرتها الإباضية للإسراع بإعلان الظهور، وإيجاد المناخ المناسب لها. وإذا كانت المصادر الإباضية تنفي نفيا قاطعا مثل هاته الاحتمالات، وتقول ببطلان وسقوط أي عمل مسلح بالمغرب سابق لحركة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري سنة 140هـ؛ الذي تعتبره أول الأئمة بلا منازع، وأن ثورته تعتبر بداية لإعلان إمامة الظهور.

والحق يقال؛ إن الرواية الإباضية في هذ الإطار لها ما يبررها، خاصة إذا اعتبرنا أن حركة أبا الخطاب هي أول ثورة إباضية اكتست طابع الشمولية والتنظيم. لكنه وبالرغم من ذلك؛ فقد أمكننا تتبع نشاط حركات الخوراج قبل هاته الفترة بمدة يسيرة، شأنها في ذلك شأن الحرة الصفرية. إلا أن الملاحظ على نشاط الإباضية الثوري في هاته الفترة جعلت المؤرخين –ومنهم محمود اسماعيل– يؤكدون أن ثورة أبا الخطاب "سبقتها حركات أخرى لم تتمخض عن شيء سوى إضعاف الحركة الإباضية قبل أن يشتد عودها، وتأجيل ظهور الإباضية على المسرح السياسي في بلاد المغرب". يحصي المتتبع لأدبيات المصادر التاريخية، **ثلاث ثورات للإباضية** قبل حركة أبي الخطاب سنة 140هـ.

الثورة الأولى: كانت سنة 126هـ، بزعامة عبد الله بن مسعود التجيبي، الذي ترأس بربر هوارة في منطقة طرابلس. وقد انتهت المعركة بعد أن قبض أخو عبد الرحمن وعامل طرابلس على التجيبي، وضرب عنقه.

الثورة الثانية: اجتمعت هوارة على اثنين من زعمائها؛ هما عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي، اللذين ذكر المرادي أنهما كانا "مشتركين في الملك". وقد قادا هذه الثورة لأخذ الثأر للتجيبي، من عامل طرابلس، التي زحفا إليها، وضربا عليها الحصار، إلى أن أُجبر عاملها حميد بن عبد الله العكي على الاستسلام، "وأخذا بثأر التجيبي، واقتصا من قاتله". يقول ابن عبد الحكم عن هذا الحصار: "فحاصروا حميد بن عبد الله في بعض قرى اطرابلس، ووقع الوبأ في أصحابه، فخرج بعهد وأمان". وقد انتهت هذه الثورة بموت عبد الجبار والحارث، بعد أن اختلف أمرهما، وتفاقم ما بينهما، فاقتتلا، وقُتل كليهما سنة 131هـ.

الثورة الثالثة: تزعمتها قبيلة نفوسة، التي بادر زعيمها إسماعيل بن زياد النفوسي بالاستيلاء على قابس سنة 132هـ؛ وذلك بعد أن "عظم شأنه، وكثر بيعه". إلا أن عامل عبد الرحمن بن حبيب على طرابلس وهو ابن عمه شعيب بن عثمان، تمكن من إسماعيل وقتله، وأسر كثيرا من رجاله.

لقد كان لفشل الثورات الثلاث للإباضية بالغ الأثر في مستقبل الحركة، حيث أن جهود عبد الرحمن بن حبيب وعماله على طرابلس، في قمع الحركات الإباضية، قد فرقت شملهم، وهو ما استدعى إعادة ترتيب البيت الإباضي من جديد، وضرورة السفر إلى مركز الدعوة بالبصرة لأخذ المشورة من شيوخ المذهب، والإعداد للثورة المنظمة الشاملة. وتجدر الإشارة؛ أنه خلال سنة 135هـ خرجت إلى البصرة البعثة العلمية المغربية المعروفة عند الإباضية بحملة العلم وتضم أربعة أشخاص: عبد الرحمن بن رستم، عاصم السدراتي[1]، إسماعيل بن درار الغدامسي[2]، وأبو داوود القبلي النفزاوي[3].

وقد قضوا مع شيخهم أبو عبيدة خمس سنوات يتلقون خلالها أصول المذهب في كتمان وسرية تامة. ولما همّوا بالرجوع إلى وطنهم انضم إليهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري[4] اليمني القادم من اليمن، وقد تلقى العلم على يدي أبي عبيدة رفقة البعثة المغربية. وقد أشار أبو عبيدة على الوفد المغربي بعد رجوعه؛ على أبي الخطاب ليتولى إمامة الظهور إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وأعدّ اسماعيل بن درار الغدامسي لتولي القضاء، وأوصاهم بمداومة الاتصال به والرجوع إليه فيما أُشكل عليهم من أمور المذهب.

1- **عاصم السدراتي**: من أئمة المغرب ومشاهد أشيخها، وقادة أهلها. كان من حملة العلم. ينظر: الشماخي، السير، ص: 143. الدرجيني، طبقات المشائخ، ج1، ص: 19.

2- **إسماعيل بن درار الغدامسي**: من حملة العلم عن أبي عبيدة. وهو أحد الشيوخ المشهورين في العلم والتعليم، والعمل والورع. ينظر: الشماخي، السير، ص: 144. الدرجيني، طبقات المشائخ، ج1، ص: 19.

3- **أبو داوود القبلي النفزاوي**: من بلاد نفزاوة. كان شيخا مشهورا عالما، ممن أخذ العلم عن أبي عبيدة. ينظر: الشماخي، السير، ص: 147. الدرجيني، طبقات المشائخ، ج1، ص: 19.

4- **عبد الأعلى بن السمح المعافري**: أحد حملة العلم من الإباضية إلى المغرب. أخذ العلم عن أبي عبيدة إمام الكتمان في البصرة، بعد جابر بن زيد. ينظر: الشماخي، السير، ص: 128. الدرجيني، طبقات المشائخ، ج1، ص: 19 وص ص:22- 23. بحاز، الدولة الرستمية، ص: 65.

وهكذا؛ عاد حملة العلم إلى المغرب، وواصلوا جهودهم في تثبيت دعائم المذهب. ولما اشتد عودهم، عقدوا العزم على إعلان إمامة الظهور بقيادة أبو الخطاب عبد الأعلى سنة 140هـ.

ثورة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري 140هـ:

ما إن عاد حملة العلم إلى بلاد المغرب سنة 140هـ، حتى بدأوا بنشاطهم، بالاتصال بالقبائل وتهيئتها للقيام بالثورة، خاصة منهم عبد الأعلى بن السمح المعافري، الذي أبدى نشاطا ملحوظا في الكتمان، واتصل بمشايخ القبائل للتشاور في إعلان إمامة الظهور. وقد تكللت مساعيه بالنجاح، خاصة لما انضم إليه جمهور الإباضية، واتفاق رؤساء المذهب على مبايعته بالإمامة سنة 140هـ، ودخلت قبائل نفوسة وهوارة وزناتة، تحت إمرته، بعد مشاورات وسرية بين حملة العلم وزعماء الإباضية، في منطقة طرابلس، واستقر رأيهم على أن الظروف ملائمة لإعلان الإمامة.

وبعد أن تمت مبايعة أبا الخطاب بالإمامة، استطاع هذا الأخير مداهمة طرابلس على حين غفلة واتخذها مقرا لدعوته. ثم استولى على جزيرة جربة وجبل دمر وقابس سنة 140هـ، ودانت ببلاد المغرب بطاعته.

ورغم أن النشاط الثور لأبي الخطاب زادت وتيرته بشكل كبير، إلا أن نهاية وشيكة كانت تلوح في الأفق سنة 144هـ خلال معركة تاورغا التي قُتل فيها أبو الخطاب على يدي محمد بن الأشعث الخزاعي، الذي أنفذه أبو جعفر المنصور العباسي، لإعادة هيبة الخلافة العباسية ببلاد المغرب. وقد كانت نتيجة هاته المعركة أن أنهت إمامة الظهور التي استمرت مدة أربع سنوات، واضطر الإباضية بعدها للعودة إلى إمامة الدفاع، بقيادة يعقوب بن حبيب المعروف بأبي حاتم الملزوزي سنة 145هـ.

ثورات الخوارج بعد أبي الخطاب ومشروع قيام الدولة الرستمية:

ظل أبو حاتم الملزوزي مستترا طيلة أربع سنوات، منذ مبايعته بإمامة الدفاع سنة 145هـ. وقد بقي خلالها ساعيا في لمّ شمل الإباضية الذين تفرق شملهم بعد معركة تاورغا، ويَجمع الصدقات ويرسلها إلى عبد الرحمن بن رستم، الذي كان يُعِدُّ العدّة لقيام دولة بني رستم الإباضية في المغرب الأوسط.

وعندما آنس من نفسه قوة، واطمأنّ إلى قدرة أتباعه وإخلاصهم، أراد إعلان الثورة سنة 150هـ، فأراد الخروج على عامل طرابلس، واقتتل الطرفان قتالا عنيفا، انتهى بفوز مؤزر للإباضية، وتم دخول طرابلس على إثرها، وبقي أبو حاتم مقيما بها إلى سنة 151هـ وهو تاريخ وصول والي إفريقية الجديد عمر بن حفص إلى القيروان.

وقد حاول الوالي الجديد عبثا أن يسترد طرابلس، لكن دون جدوى. فالجيوش الثلاثة التي أنفذها لهذا الغرض كلها منيت بالهزيمة النكراء أمام جيش أبي حاتم الملزوزي، هذا الأخير تصيّد هاته الفرصة المناسبة لحصار القيروان سنة 153هـ. وبعدها انتقل إلى حصار عمر بن حفص الذي كان بمدينة طبنة بإقليم الزاب. وقد كان في لقائه بها عبد الرحمن بن رستم، وجمع كبير من الصفرية بقيادة أبي قرة، إلا أن هذا الحصار لم يدم طويلا لنشوب خلاف بين الإباضية والصفرية؛ عاد على إثره أبو حاتم لحصار إفريقية.

وقد بقيت الأمور تسير في هذا الفلك، والإباضية تقوى يوما بعد آخر بقيادة أبي حاتم، وعمر بن حفص تزداد قوته ضعفا، خاصة بعد أن اتجه لفك الحصار عن القيروان، وهو الأمر الذي لم يحسب له حسابه جيدا، وعادت عليه كل سياساته بعد عودته لنجدة القيروان، بأوخم العواقب، وانتهى الأمر بمقتله على يدي الإباضية سنة 154هـ.

وبعد هذا التاريخ عقد أبو حاتم صلحا مع جميل بن صخر ودخل القيروان، واستخلف عليها أحد عماله. ثم يمم شطر طرابلس حين وصلته أنباء مقدم يزيد بن حاتم على رأس جيش من المشرق. وقد تمكن أبو حاتم في البداية من هزيمة طلائع الجيش العربي التي كان يقودها سالم بن سوادة التميمي عند مغدامس، إلا أن نشوة الانتصار لم تدم طويلا، ذلك أن الجيشان التحما من جديد في معركة قاسية عند جبل نفوسة، وقتل على إثرها أبو حاتم الملزوزي وجل أصحابه من الإباضية 155هـ.

وبالرغم من هذه الانتكاسة الكبيرة للإباضية في إفريقية وتصدعها، فإن إباضية المغرب الأوسط بقيادة عبد الرحمن بن رستم قد نجحوا في تأسيس الدولة الرستمية بتاهرت سنة 161هـ، والتي امتد نفوذها فيما بعد لتجمع كل أطياف الإباضية ببلاد المغرب، وتقدم الدليل الكافي على ناجح الإباضية في ثوراتهم لتحقيق مسعاهم الكبير والمتمثل في إقامة دولة إباضية بالمغرب.